الصلح الالماني

في الماضي والحاضر

(٢)

ولبعد ذلك توسط القيصر لدى ملك روسيا لسيبيو متشفعاً اليهِ في ملك هنوفر الاعمى فلم يقبل شفاعتهُ بل كتب اليهِ كتاباً أيقن منهُ صغار ملوك المانيا وامرائها ان مخاوفهم من روسيا وهي المخاوف التي طالما كانت كابوس احلامهم وغول يقظتهم انما هي مخاوف في محلها . قال ذلك بروسيا في كتابهِ

« صدقني انهُ لم يضرّ بمبدإ الملكية في المانيا شيء مثل وجود هذه الدول الصغيرة الضعيفة فيها لانها تعيش على حساب المصلحة الوطنية ولا تعنى عناية الملك العناية الواجبة فهي تضرّ بالمبدإ الملكي وتسيء سمعتهُ كما تسيء الاسر الشريفة الفقيرة سمعة طبقة النبلاء . والرأي العام عندنا مقتنع بان وجود هؤلاء الملوك الصغار مضاد للمصلحة الوطنية »

واشار الملك في كتابهِ هذا الى مخاوف القيصر من نتيجة وعدهِ بانشاء برلمان وطني فقال

« وسأقاوم الثورة في المانيا في المستقبل كما قاومتها في الماضي ولا اذعن لمطالب برلمان المانيا باكثر مما اذعن لمطالب البرلمان البروسي »

وقد صدق في قولهِ هذا لأن الامة الالمانية لم تخطُ خطوة واحدة الى الامام في سبيل الحكومة النيابية كما تفهمها البلاد الديموقراطية منذ ذلك الحين الى الآن

معاهدة فرنكفورت

هذا وان النزاع الذي دار بين حزبي السياسة والحرب في بوهيميا سنة ١٨٦٦ (كما تقدم القول) على مسئلة ضمّ الاراضي عند عقد الصلح تجدّد بعد حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ عند عقد معاهدة فرنكفورت . وبذل كبار القواد جهدهم لاجتناب بسمرك والسير في مفاوضاتهم على حدة متجاهلين وجودهُ مع انهُ رئيس الوزارة من جهة وقد اضيف اليهِ من جهة اخرى لقب آخر وهو رئيس الاتحاد الالماني الشمالي

وعصابة الحرب هذه هي العصابة القديمة التي ناهضها بسمرك قبلاً مدة اربع سنوات وزعيمها مولتكي . وقد كان رأي هذا الزعيم واركان حربه منذ ان وضع شروط الصلح هو حقهم الخاص لا يشاركهم فيه احد وانهُ لا يدعى الوزراء ورجال السياسة الى مفاوضات الصلح الا بعد وضع تلك الشروط وقبولها . ولما قرّ الرأي على سفر بسمرك الى ميدان القتال سأل ذلك احد كبار القواد فقال ما شأن بسمرك والحرب . اما بسمرك فتركهم يقولون ويتذمرون ما شاؤوا وسافر الى الميدان غير مبالٍ باحد منهم

على ان ذلك لم يمنع وقوع الشقاق بينهُ وبين الرجال الذين « حرفتهم الحرب » كما وصفهم في بعض كتاباته ولاسيما مولتكي زعيمهم . فقد كان كلٌّ منهما ينظر الى الآخر بعين الريبة والشبهة مرجحاً ان ينال من الحظوة عند الملك ما لا ينالهُ هو فاذا رآه مختلياً بالملك ولا ثالث معهما اعتقد ان هناك مؤامرة تدبّر عليه . وقد اضطر الملك الى التوسط بينهم غير مرة لما رأى ان الشقاق بينهما جاوز حدود اللياقة . فقد جاء في مذكرات بوش سكرتير بسمرك قولهُ

« خلا الملك بالوزير مدة فساءهُ ذلك بعض كبار اهل الشأن » . وقولهُ في مكان آخر « شكا الرئيس مرة اخرى من ان رجال الحرب لا يطلعونهُ على كل امر ذي بال يحدث بخلاف ما كانت الحال عليهِ سنة ١٨٦٩ فانهُ كان يطلع حينئذٍ الى كل مفاوضة . اما الآن فلا حتى قال « يجب ان اتداول في كل شيء فان شغلي يستدعي ذلك والواجب ان اعرف كل ما يجري من الشؤون العسكرية حتى استطيع ان اعقد الصلح في الوقت الملائم »

ولم يكتفِ بسمرك بهذه الشكوى بل ردّدها مراراً وتكراراً فيما بعد واطال في نقد مسلكي جهرة ما شاء . اما مولتكي فتأثر لنفسهِ بالمبالغة في السكوت والكتمان فكان سكوتهُ اوقع في نفس بسمرك من الكلام . وما كتب تاريخ حرب فرنسا والمانيا لم يذكر اسم بسمرك فيهِ

وقد كان مذهب القواد بادئ بدء ان يضموا ما استطاعوا من الاراضي وذلك قبل ما عرفت نتيجة الحرب باشهر ولو لم تكن في معرض الشك عندهم . فانهم كانوا يكثرون حينئذٍ في الاسلاب ويبحثون في زيادتها . قال بوش في مذكراتهِ في الفصل السنة ١٨٧٠ اي في اول الحرب « لا ريب البتة في انهُ اذا انتصرنا

على فرنسا انتصاراً نهائياً فانها تحتفظ بالاراضي ومتى رمتحوطها من الارض » . وبعدما سلم الجيش الفرنسوي في سيدان (في ٢ سبتمبر) زاد الغزاة تعطرساً حتى كتب فون درون وزير الحربية الى قريب لهُ من رعيس يقول « قد اختلَّ التوازن تمام الاختلال . أليس سيف بروسيا الآن صولجان اوربا » . وقامت الصيحة اذ ذاك بان تسحق فرنسا وتعفّر بالتراب . وفي ١٢ سبتمبر كتب الجنرال فون بلومنتال كتابة تدلُّ على حقيقة الروح البروسي الذي ظهر في برست لتوفسك حديثاً فقال « يقلقني ان الصحف الفرنسوية بدأت تتحدث بالصلح ولكنني آمل اننا لا نخدع ونقاد الى المفاوضة فيهِ . اذ يجب اولاً ان نبيد العدو تحت اقدامنا والاَّ فلا راحة لنا . ويجب كذلك ان لا نقف كما وقفنا امام فينا بل يجب ان ندخل باريس دخول الظافرين ولو لفعت كلها . وانما يعوزنا رجل مثل بلوخر يكره الفرنسويين »

وفي ٤ سبتمبر اي بعد تسليم نوليون في سيدان بيومين واخذهِ اسيراً الى كاسل في المانيا نشبت الثورة في باريس ونودي بالجمهورية الثالثة وفرّت الامبراطورة الى انكلترا وتألفت حكومة للدفاع الوطني برياسة الجنرال تروشو وانتدب جول فافر وزيراً للخارجية وغمبتا للداخلية والجنرال فلو للحربية . وقد وافقت فرنسا كلها بلا كلام على قرار عاصمتها ومضت مدة وجيزة والسلطة التنفيذية الجديدة ترجو ان المانيا توافق على شروط للصلح مقبولة بعد ما تنكرت فرنسا للامبراطور ونبذته قسياً . وتمادت السلطة في هذا الرجاء حتى اصدر فافر بلسان الحكومة منشوراً بعد سقوط سيدان بثلاثة ايام يقول فيهِ « لا نتنازل عن قيد اصبع من ارض فرنسا ولا نسلم حجراً من حجارة حصونها » . ولكن رجال الحرب الالمان كانوا حينئذٍ يطلبون مطاليب باهظة حتى ارتأى الجنرال فون ألفنسلبين ان تؤخذ من فرنسا كل ولاياتها حتى نهر المارن . ثم رضي بسمرك بمقابلة فافر في ١٩ سبتمبر للتناقش معاً في شروط الصلح . فطلب بسمرك اشياء لم يوافق فافر عليها لان الفرنسويين لم يشاؤوا التنازل عن شيء البتة فافضى ذلك الى فشل المفاوضة

وكان بسمرك قد اكد لرجل من رجال السفارة الانكليزية قبل اخفاق المفاوضة ببضعة ايام ان المانيا تقنع بمدينتي متس وستراسبرج دون المقاطعتين اللتين هما

عاصمتها . ولكن لم يكن ثمت مجال للشك في ان القوم كانوا قد قرروا الالحاح على فرنسا في التنازل عن الالزاس كلها وعن جزء من اللورين على القفيل . وطلب فون روون تقديم الجنود الالمانية في نسي وثلثي اللورين الفرنسوية . وكتب في ٦ سبتمبر يقول « انا حريصاً على مصلحة قومنا ومصلحة الامن لا لعقد صلحاً لا تمزق فرنسا فيه شماطيط » . وارتفعت اصوات اصدقاء المانيا في انكلترا ناصحين بالاعتدال مشيرين بسوء عقبى الغلو قائلين ان فدح المطالب لا بدّ ان يثير حفيظة خصم مغلوب على امره لكنهُ ذو كبر فينتظر فرصةً على فساد فلا يعدم ان ينتقم بعد حين . ولكن اصوات النصح والانذار هذه ضاعت اذناً صماء في المانيا وهذا افضى الى انقلاب الرأي العام في انكلترا انقلاباً عظيماً في فكره وخطته حالما اتضح لهُ ان موقف فرنسا موقف اليائس الذي لا رجاء لهُ وان المانيا عزمت على اخذها بيد من حديد . نعم ان سيدان زادت اعجاب القوم بمهارة الجيش الالماني وسعة حيلته ولكنها فتحت ايضاً مجال الامل في عقد صلح شريف مع البلاد المنكوبة فلما زال هذا الامل افضى ذلك الى ثورة شديدة في الخواطر ولاسيما ان الانكليزي من طبعهِ شهم كاره للظلم والضيم ميال الى المغلوب فانتقى الانعطاف الى المانيا والحركة الوطنية الالمانية وحلّ محلهُ العطاف الى فرنسا المغلوبة والى ما تبذل من الجهد في تجديد شبابها والنهوض من عثرتها

ولم يكن اهل المانيا انفسهم مجمعين على المطالبة باسترداد بلاد مضى عليها قرنان وهي منفصلة عن المانيا فان غراندوق بادن مثلاً قال جهاراً ان عملاً مثل هذا يكون خطأً سياسياً لان اهل الالزاس متعلقون بفرنسا يريدون ان يبقوا فرنسويين . ثم ان ولي العهد عارض في ضم الالزاس ووافقهُ دوق كوبرغ على ذلك مع انهُ كان ميالاً الى الحرب قلباً وقالباً . وقامت مظاهرات في بعض مدن المانيا ضدّ الضمّ مثل مدينة كونجسبرغ وبرنسويك ورفع الاحرار اصواتهم من كل ناحية في ذمهِ . ولكن رجال العسكرية بذلوا وسعهم في خنق اصوات المعارضين لهم حتى انهم منعوا مجلس النواب من ابداء رأيهِ في المسئلة وسجنوا احد مشاهير الصحافيين الديموقراطيين ظلماً وعدواناً لانهُ ندد بسياسة الضمّ

وتتالت النكبات على فرنسا في خلال ذلك . ثم لما اخفق تيرس في اكتوبر في المهمة التي انتدب لمفاوضة حكومات الدول العظمى فيها رأت الحكومة

الفرنسوية ان لا مناص لها من احد امرين فاما ان تعقد الصلح مع عدو متعنت مغالٍ في طلباته على اسهل ما تستطيع من الشروط واما ان تداوم الحرب وتتحمل تبعتها . فدارت المفاوضات بين الفريقين في الشهر التالي على عقد هدنة ولكنها لم تجدِ نفعاً . وقد كتب تيبرس فيما بعد عن مطالب الالمان يقول « وكنت اظن ان الشروط التي يشترطونها هي غرامة قدرها مليارا فرنك والالزاس كلها وجزء من اللورين ما عدا متس بشرط ان تمضي هذه الشروط حالاً » . وواقع الامر ان بسمرك طلب هذه المطالب حينئذٍ . ثم لما عقد مؤتمر فرسايل لم يقنع الالمان بهذه المطالب بل طلبوا مقاطعات الرين الاسفل والاعلى ومعظم مقاطعتي الموزل والمرت ومقاطعتين من الوسج . وبعبارة اخرى ان معظم الالزاس وفيها ستراسبرج ما عدا بلفور وثلث اللورين وفيها متس فصلت عن فرنسا

وكان الالمان قد تمكنوا ببلفور ولكن تيبرس أباها عليهم البتة . فقال له بسمرك « صدقني اني عملت كلّ ما استطيع ولكن يستحيل عليّ ان اترك لكم شيئاً من الالزاس » . فقال تيبرس « اترك بلفور وشأنها وانا اوقع شروط الصلح حالاً » . وكان بسمرك ميالاً الى اجابة طلبه ولكن حال دونه جشع القواد المشهور ومع ذلك الحّ على مولتكي في القبول فكانت النتيجة ان بسمرك قال لتيبرس « اي الامرين تختار — أبلفور ام تنازلنا عن دخول باريس » فاختار تيبرس بلفور بموافقة فافر وبهذا انتهت المساومة

على انهُ لم يكن هناك بدٌّ من موافقة الحكومة والجمعية الوطنية في بوردو . وكانت بوردو من البعد عن ميدان القتال بحيث ظهر انها لم تدرك حقيقة ما يجري فيهِ ولافقهت تشديد الغالبين في مطالبهم . فان الجمعية الوطنية جعلت تطاول وتتململ ورفضت الموافقة على شروط اشد وطأة مما كانت تنتظر . فلما اطلعت على الحقيقة وما بلغ الموقف من الحرج واليأس اذعن من النواب من لم يذعن فبعث فافر الى بسمرك بتلغراف في ١ مارس يخبرهُ بموافقة الجمعية على الشروط . وكان الموافقون ٥٤٨ عضواً والمعارضون ١٠٦ . فاذعنت فرنسا لسيف عدوّ لا يرحم لا لسبب سوى ان سيفها كسر . ولكن صوت فرنسا الحقيقي سمع من خلال احتجاج النواب الذين يمثلون البلاد المفقودة فانهم نادوا على رؤوس الملإ قائلين « ان معاهدة تتصرف فينا بلا رضائنا لهي معاهدة باطلة لا يعمل بها » . ولا

يخلي ن الغرامة التي اخذتها الثانيا من فرنسا هي خمسة مليارات فرنك او مئتا مليون جنيه . وكان الالمان قد طلبوا اولاً ثمانية مليارات فرضي تيرس ان يعطيهم اثنين ثم تم الاتفاق بين الفريقين على قسمة الفرق بينهم منا صفة

وقد اختلف الباحثون رأياً في خطة بسمرك من حيث ضم الاملاك . فانه بذل جهده في اظهور بمظهر الوسيط العدل بين فرنسا المغلوبة وقواد المانيا اهل الجشع والطمع . فلذلك قام الخلاف بينهُ وبينهم بزعامة مولتكي لان الاعتبارات السياسية كانت مقدَّمة في نظرهِ على الاعتبارات الحربية وبين القسمين ما بينهما من التضادّ . وكان لهم القواد لا يعرف حدّاً فلذلك ارادوا ان يقتطعوا من فرنسا كلّ ما شاؤوا وشاءت نهمهم لو استطاعوا . وكان بسمرك مدة المفاوضات مضطرًّا الى لزوم الحذر والاحتراس من مكايدهم اذ لم يكن لهم همٌّ الاَّ اكراه الملك على العمل بمشيئتهم . فقد قال البرنس هوهنلوهي في مذكراته « اضطرب بسمرك في اواسط نوفمبر (١٨٧٠) كلّ الاضطراب من شدة علاقة مولتكي بالملك خشية ان تؤثر في اعمالهِ السياسية وتعرقلها » . فقد كان القواد يريدون توسيع الحدود ولم يبالوا بالعواقب السياسية في حين ان هذه العواقب هي اهمّ ما يهم رجلاً سياسياً مثل بسمرك

وكتب الجنرال فون بلومنتال في ٨ سبتمبر يقول « اجتمعت بالكونت بسمرك نصف ساعة تحدثنا فيها كثيراً عن الحالة العامة . ويفرح في نفسهِ لحظ انهُ لا يشتهِ هذا الامر الجوهري وهو انهُ يجب علينا ان لا نبالي بتهديد الدول الاجنبية بل ان نعامل الفرنسويين معاملة عدوّ مغلوب حقيقة ومهدّم الاركان ونذلّهم ما استطعنا الى ذلك سبيلاً . ونجهز عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة ولا يستطيعوا التنفّس مرة اخرى مدة مئة سنة »

وكتب هذا الطاغية في ٢٤ فبراير سنة ١٨٧١ يقول بعد مقابلة بسمرك « يجري بسمرك في اعمالهِ على سياسة هي غاية في الرقة والدقة حاسباً حساباً لامور يظهر لي ان لا علاقة لها بالمسئلة التي نعالجها . فهو ينظر من جهة الى الدول الاجنبية ومن جهة اخرى الى العدوّ المقهور ويقول انهُ ينبغي ان لا يجرح جرحاً ميتاً الى غير هذا من الاعتبارات . اما الجندي البسيط الفهم فيرى ان هذا كلهُ موجب للهزء والسخرية . فان العدوّ المدوس يجب ان يستلف دمهُ حتى لا يستطيع

الوقوف قبل مئة سنة ويجب ان يصفد باغلال تمنعه من التحدث بالانتقام »

وكان بسمرك يميل على الدوام الى الاعتدال في ضم الاراضي مخالفاً بذلك كبار القواد. ففي سبتمبر قال لسكرتيره بوش انه يقنع بقلعتي ستراسبرج ومتس وحدهما ونبذ رأي القائلين بضم الالزاس بناء على حجج تاريخية وسمّى هذا الرأي « رأي الاساتذة » . ولكن القواد زادوا في الحاحهم والحافهم وكان الملك مؤيداً لهم فاضطر بسمرك الى العدول عن رأيه . ولما رأى ان لا مناص من ضم الالزاس عارض في ضم متس قائلا انها مدينة فرنسوية ولا ريب ان اهلها يفايقون الحكومة الالمانية ويؤدون الامبراطورية الالمانية مزيد الاذى . وكان حتى آخر يناير سنة ١٨٧١ متشبثاً برأيه من ترك متس والفورين لفرنسا ثم لما قرّ الرأي على اخذ متس اعرب جهاراً عن اسفه لذلك قائلاً « لست استحسن رؤية عدد كبير من الفرنسويين في بيتنا على رغم مشيئتهم » واشار باخذ مليار آخر بدلاً من متس. قال « فنبني بثماني مئة مليون فرنك منها قلعة وراء متس حوالي فلكنبرج او في جهة سربروكن ويبقى في يدنا ربح صافٍ قدره مئتا مليون فرنك » . واخبر الكونت فون بست في السنة التالية انهُ « عارض في اخذ متس بسبب استيلاء اهلها ولم يسلم به الاَّ على اثر الحاح رجال العسكرية وقولهم ان اخذها يساوي مئة الف رجل في زمن السلم »

ويقال اجمالاً ان قول بسمرك انهُ كان يميل الى التساهل مع فرنسا ومعاملتها بأليق مما كان رجال العسكرية يودون قول صحيح . وكان يعتمد على رأيه وحكمه ولم يعدل عنهما الاَّ مكرهاً مذعناً لعصبة عسكرية كان الملك يؤيدها او يتنكب مسئولية مقاومتها . وبقي هذا النزاع بين اصالة رأي الملكية واستبداد العسكرية قائماً الى الساعة الاخيرة . ولما سمع بلومنتال بتغلب رأي رجال الحرب على رأي بسمرك طفح عليه السرور فكتب يقول « كلُّ شيء على ما اشتهي . اني اعتذر الى بسمرك من صميم فؤادي . اخذوا رأي مولتكي امس لآخر مرة قاصرّ على اخذ متس » . وهكذا انتصر الذين « حرقتهم الحرب » سنة ١٨٧١ بعد ما خذلوا سنة ١٨٦٦ فكانت النتيجة هذه الحرب التي تستنزف الآن دم اوربا

ومغزى ذلك كلهِ ان روح العدوان العسكري التي طمحت سنة ١٨٦٦ الى التحكم في صلح بروسيا والنمسا والتي دسّت السمّ فيما يدعى كذباً « اتفاق » سنة

١٨٧١ — هذه الروح لا تزال حية في المانيا الى هذا اليوم. فقد يكون ثمة ما هو شرٌّ من الحرب ولكن شرٌّ من الامرين صلح يعقد على ايدي القواد الالمان

قال الكاتب الذي لخصنا عنه هذه المقالة « ولا يكفي ان تثابر الامم المتحالفة على الحرب حتى تجرّد هذه الروح من كلّ قدرة على الشرّ وتمنعها من اغتنام كلّ فرصة للاذى بل انهُ يجب ايضاً على الدول التي تحارب لتحرير العالمين من نير الاستبداد البروسي ان ترفض قطعاً معاملة عصابة المجرمين العسكريين الذي اثاروا هذه الحرب او اي كان منها ولاسيما انهم تحدوا اوربا من الآن قائلين انهم لا يعتلون في مؤتمر الامم الذي يعقد للمفاوضة في الصلح صوت الامة الالمانية ولا رغبة البرلمان الالماني بل مصالح الجيش لا غير. فمفاوضة رجال مثل هؤلاء هي عثارة قبول قيمتهم بما يقدرونها هم انفسهم »

مستقبل الارض وسكانها

لا جدال في ان هذا الزمان العصيب اصعب الازمنة التي اتت على الانسان منذ اول ظهوره على سطح هذه الارض بشكله الحالي الى الآن. ولكننا اذا استطعنا ان نرفع عن عيوننا الغشاوة المسدولة عليها وننظر الى المستقبل نظرة صادقة فلا بدّ ان نرى ان ساعة الشدة القصوى لم تأزف بعد وان المستقبل يدخر لبني الانسان ازمنة لا تعدُّ الازمة الحاضرة شيئاً مذكوراً في جنبها مع هذا المستقبل المشوم ليس بعيداً عنّا بعداً كثيراً

قدّر تقويم هوينكر ان الارض تتم ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ سنة وانهُ سيكون فيها هذا العدد من الخلق سنة ٢١٠٠ للميلاد اذا بقي الناس يزدادون بمتوسط السرعة الحالية. والاحصائيون على ان هذا التقدير صحيح بالاجمال. وبحث كاتب منذ ٢٧ سنة في سكان غرب اوربا (ما عدا روسيا والبلقان) وعددهم ومتوسط زيادتهم فرأى انهم يزدادون بمتوسط ٢١ في المئة في ثلاثين سنة اي ان الزيادة تبلغ ٧/١ مليون في السنة او ٦٦٦ في المئة كل عشر سنوات. وبعبارة اخرى انهُ اذا استمرت زيادة السكان في غرب اوربا كما كانت بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٨٠ فانهم يبلغون ٤٥٥ مليوناً سنة ١٩٩٠